الحجاج في المجتمع المفتوح

إيمانويل دانبلون

محمد الرضواني

1- ما المجتمع المفتوح ؟

إن المجتمع المفتوح هو ذاك المجتمع الذي يتوجب فيه على الأفراد اتخاذ قرارات شخصية، وينظر إلى المؤسسات داخله باعتبارها كيانات عرفية، وهو ما يعني أنها قابلة للنقد والتطوير. إن المؤسسات، في مجتمع من هذا النوع لا تحل أبدا محل المسؤوليات الفردية . بل على العكس من ذلك، إن النقد الفردي هوالذي يشكل المبدأ الدينامي الضامن لانفتاح القيم التي تقوم عليها هذه المؤسسات . إن مجتمعا من هذا النوع لا يمكن تصوره إلا داخل ثقافة تشبعت بالفكر الديموقراطي والعلماني.

ومع ذلك، إذا كانت هذه المكتسبات قد مدت جذورها عميقا داخل عادات المجتمعات الحديثة، فإنها مازالت هشة فالأفراد يميلون عادة إلى التراجع إما من خلال البحث لمؤسساتهم عن ضمانات مطلقة،وإما من خلال التخلي عن المسؤوليات الفردية التي تكمن في انتقاد المؤسسات – وهي طرق متنوعة للتفريط في حرية صعبة هي حصيلة قرون من النضال.

وهناك نتيجتان معتبرتان لهذا الموقف، يعبر عنهما من خلال اتجاهين في استعمال الكلام العمومي.الاتجاه الأول يكمن في الخلط بين الواقعة والحق ، وتحويل العرفي إلى طبيعي أملا في أن يقدم هذا التحويل ضمانات نهائية على ديمومة مبادئنا . أما الثاني فيكمن في تعويض النشاط النقدي الفردي بصدى كلام جماعي، مؤكدين أن موقف الأغلبية المعبر عنه من خلال شعار هو صوت الأحكام المسبقة.ويشكل هذان الاتجاهان أشكالا من الارتكاس نحو عادات المجتمعات المغلقة ومنها المجتمعات الدينية والتقليدية.

إن المجتمع المفتوح هو تعبير عن ديموقراطية تتحدد كنظام حمائي ضد كل أشكال التسلط ، بما فيها الفكر الديماغوجي. إن المؤسسات الديموقراطية تتوفر بطبيعة الحال على سلطات مضادة فعالة حيث يمارس النقد دوره الحاجز الواقي ضد كل شطط في استعمال السلطة. ولكن هذه السلطات

المضادة ذاتها هي أشكال من السلط قد تتحول إلى تسلط . ولهذا لا يمكن للمجتمع المفتوح أن يحافظ على نفسه من خلال حمايةمؤسساته من كل نزوع نحو لانغلا ق فقط.إن الضمانة على الانفتاح تمر من خلال ممارسة الأفراد لنقد دائم لمؤسساتهم.

2- التمييز بين الواقعة والحق

لقد قيل دائما إن المجتمع يمارس حجاجا استنادا إلى مبادئهي من إنتاجه ، ولهذا فهي قابلة باستمرار للنقد. ويكمن أحد اتجاهات الارتكاس والانغلاق في المجتمع الديموقراطي في التعامل مع هذه المبادئ كما ل وأنها وقائع ، أيهما لو أنها معطاة مع طبيعة ا لأشياء ذاتها. والحال أن الطبيعة لا يمكن انتقادها.

ومن أجل فهم آليات هذا الاشتغا لعلينا أن نعيد قراءة الفصل الأول من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: " يولد جميع الناس أحرارا ومتساوين في الكرامة والحق."

فمن الجليأن هذا الملفوظ لا يهدف ، رغم " المظاهر اللسانية" ، إلى وصف الناس من خلال ما هو طبيعي وكوني فيهم. فالأمر يتعلق،على العكس من ذلك ، بالإعلان عن حق تتبلور استنادا إليه كل المواقف التي لها روابط بالسياسة . فالفصل المذكور يعبر عن قاعدة معيارية انطلاقا منها يحكم على السلوكياتغير المنضبطة لهذه القواعد وإدانتها. إلا أن هناك نقاشات قامت على فكرة تقليصية تجمع من جهة بين مساواة أو لامساواة –وهما مقولتان حقوقيتان - ومن جهة ثانية بين الاختلاف أو التشابهوهما مقولتان من طبيعة الوقائع . ولنعبر عن ذلك بلغة بسيطة :فلأن الناس مختلفون بطبيعتهم ، وجبالتفكير في فرض مساوا ة قانونية بينهم. والمعروف أن جوهر القانون يقوم على ألا تكون العلاقات السياسية محكومة بقوانين الطبيعة، قانون الأقوى أو قانون الغاب.

3- مفارقات الجدل حول النسوانية

عادة ما يتم الخلط بين الواقعة والحق، يتم ذلك أحيانا بنذالة أو نتيجة فكر متطرف، أو يتم عن جهل أوموقف امتثالي،أو من باب العاد ة فقط. ونتيجة لذلك تتم الاستعانة بمفاهيم هجينة لا نعرف هل تعود إلى الطبيعة أم إلى العرف . ويقدمالجدل الدائر حول النسوانية مثالا على ذلك . وكثيرا ما يعيد المشاركون في هذا الجدل إنتاج اختزالات، وذلك كيفما كانت طبيعة الموقف المدافع عنه.

ففي مرحلة أولى كان الموقف الذكوري يؤكد –عندما يتواضع و يحاول البرهنة على مواقفه - أن المرأة من طبيعة مختلفة عن طبيعة الرجل، ليستدل على أنها يجب أن تعيش في وضع أقل من وضع

الرجل من الناحية المهنية والاجتماعية .إن الأمر يتعلق باختزال الواقعة في الحق . وفي مرحلة ثانية انتقد الموقف الذكوري من طرف الـ تيار النسواني الذي تجاوز هذه الثنائية معلنا أسبقية الحق على الواقعة : تكافؤ في الفرص والأجوروالتمث يلية في المؤسسات السياسية ... وتم التأكيد أن المرأة يجب أن تتمتع نفس الحقوق التي يتمتع بها الرجل ،رغم الاختلا فات الطبيعية التي لا يمكن إنكارها. فكيف يمكن أن ننفي وجود الفوارق البي ولوجية بدءا من حالة الأمومة؟ ومع ذلك ،واستنادا إلى جهة النظر هذه التي تفصل بوضوح بين الطبيعة والعرف ظهرت إلى الوجود مواقف جديدة ومتناقضة د اخل تيار النسوانية ذاته.

أول تلك المواقف ينفي ببساطة وجود اخ تلاف واقعيبين المرأة والرجل . إن الأمر يتم كما لو أن الاختلافات البيولوجية هي مجرد استيهامات . ليتم الحديث عن " النوع" لا " الجنس" كما لو أننا نتحدث عن النحو لا عن البي ولوجيا. وهذا أمر مريح، تماما كما هي مريحة سياسة النعامة . فمن خلال نفي الوقائع نقبر النقاش في المهد: فبما أنه لا وجود لأي خلاف فلا وجود لأي قرار.

أما الموقف الثاني الذي يعبر عن نفسه حاليا من خلال موقف نسواني جذري فيؤكد – مثله مثل الموقف الذكوري التقليدي وجود خلافات طبيعية بين الرجل والمرأة ولكنه يعلن شرعية سيطرة المرأة على الرجل قالبا بذلك المعادلة القديمة.

إن الآثار المتناقضة لاختزال العرفي في الطبيعي تتمحور حول ذلك التعبير الغريب الذي يقول ب "الحق في الاختلاف"حيث يتم المطالبة السياسية بأشياء أعطيت لنا بحكم الواقع . إن الاختلاف، أي التنوع، هوشيء نتمتع به فالأمر يتعلق بمعطى بولوجي كوني لا يمكن تجاهله . ولهذا، وكما يقول السفسطائيون، فإن الجمو لا يحاجج حول البياض والحار والبارد . فالمواطنون يجادلون بعضهم البعض حول وقائع إنسانية أي حول مبادئ وقيم .وفي الحالة التي تخصنا، فإن المسألة السياسية يعبر عنها بالطريقة التالية: ماذا سنفعل بالتنوع ؟

إن النقاشات حول النسوانية تقدم لنا حالة مثالية حيث تمتد تبعات الاختزال إلى الموقفين معا . فمحل التأكيد الذكوري الهوياتي حل تيا نسواني راديكالي اختار خوضمعاركه في حقل الوقائع ، معلنا عن وجود جوهر نسوي أساسهالهوية لا الـ سياسة.وستعلن هذه التصريحـ ات عن نفسها، وبشكل مفارق، من خلال نفس الكليشيهات البالية لذكورية منهارة. إن مفارقة الحق في الاختلاف هو من نفس طبيعة كل النقاشات التي تستعين بوضع الأقليات من أجل إدانة العنصرية والأوموفوبيا.

إننا نختزل الواقعة والحق لأن هناك داخلنا رغبة لامعقول وعتيقة إن لم نقل ارتكاسية تدفعنا إلى ملء فراغات ضمانات نهائية تخلصنا من كل هم حجاجي فما علينا إلا أن نؤكد البديهي، ومنه ستنبثق كل " القرارات " الجيوتيكية التي نعرف إلى أي حد كان الأمل الأفلاطوني للضمانات المطلقة مبنيا على اختزال السياسي في الطبيعي ، ومبنيا أيضا على الأمل المجنون في العثور على ضمانات نهائية ومطلقة على وجود مجتمع عادل. والأمر يتعلق بتيار عنيد مازال سائدا إلى الآن.

4- هل يمكن أن نكون إلى جانب الحق دائما

لقد قلنا إن التيار الثاني يكمن في اختزال النقد في غياب موقف فردي . فعوض اعتبار المبادئ من خلال شرعيتها أو من خلال ملاءمتها في إدارة النقاش، وعوض دراستها في أفق انتقادها ، فإنه يتم الإعلان عنهاباعتبارها شعارا ، ضم صوت الفرد إلى صوت المجموع الذي يستمد سلطته من طابعه المجهول.

إن المجتمعات العتيقة تمتلك هي أيضا مجموعة من القيم يتم التعبير عنها من خلال أمثلة وحكايات صغيرة لم تكن أبدا محل نقد في عالم تحتكر فيه النخبة حق الكلام . ففي مجموعة قبلية يجب ألا تنتقد المبادئ لأنها نهائية وتشكل ضمانات مطلقة. إن هذا التصور هو تصور خاص بمجتمع مغلق يبني قيمه استنادا إلى تاريخ مشترك يشترك فيه الجميع و منه يستمد الجميع هويته . ومن يتزاح عن هذه القيم سيكون مصيره التهميش والعزل . ولهذا السبب فإن الأمثال والأساطير المؤسسة تنقل كما هي بشكل جامد من جيل إلى جيل من خلال الصوت الجمعي المجهول للشعراء والكهنة والحكماء.

وعلى العكس من ذلك ، ما يحدث في المجتمع المفتوح. فالقيم تستمد عقلانيتها من كونها قابلة للانتقاد والنقد لا يمكن أن يكون سوى فردي . حتى وإن كان لايمارس في فراغ . إن النقد ينصب على المبادئ والقيم التي تشكل إرثا مشتركا للمجموعة التي تحاجج.

إلا أن انتقاد الإرث المشترك ليس أمرا سهلا ، ذلك أن هذا قد يقود إلى عزلتنا (حتى وإن كان العزل حاليا ليس من طبيعة سياسية). وهذا لا يمنع أن يكون للعزل تأثير نفسي قوي.

ففي مقابل النقد هناك التمترس في موقف دون حجاج ، والإعلان عن موقف بديهي كما لو ان هذا الموقف نابع من الدوكسا، من رأي الأغلبية. إن تأكيد البديهيات له رديف مباشر هو إقصاء المناهض للدوكسا. فالمناهض له مجنون أو غبي أو منحرف خطير.

لنأخذ المثال التالي وهو مثال بالغ الدلالة . ويتعلق الأمر بتدخل حول التسامح في منتدى للحوار:

" أيها اللامتسامح

لا مكان لك في هذا الموقع الذي يناضل ضد ما تقوله !!! هي مآخذك على العرب ؟ أنت مريض ومثير للشفقة !!! أشباهك يجب أن يختفوا من الوجود ، وأعدك أنه سيأتي يوم ستفهم فيه طبيعة مواقفك الغبية التي هي عنصرية مائة في المائة . فماذا ينقص العرب (أو آخرين) ؟ إن مقولة العرق الإنساني لا معنى لها حاليا ويبدو أنك لم تفهم بعد هذه الحقيقة."

إن المثال يوضح حالة نوعية على حجاج مزيف تحتل داخله الدوكسا موقفا مميزا ، لدرجة أن لا أحد يقف في وجهه خوفا من الإقصاء والعزل . فالإدانة المشروعة المعبر عنها – التي توضحها علامات التعجب – لا متنفس لها سوى التعبير البسيط عن الإقصاء إن صاحب هذه الكلمات يصل إلى حد استعمال التوبيخ على طريقة الخطاب القبلي الهوياتي الذي تتميز آليات اشتغاله باختلافها الجذري عن الموقف النقدي . بالتأكيد التسامح هو من القيم الأساس في مجتمعاتنا الديمو قراطية، قليلون هم الذين يجاهرون بمناهضته . ومع ذلك فإن النقاش في حالات كثيرة يكون معقدا، والقرارات التي يجب اتخاذها تتطلب مجموعة من الدراسات حول قيم متفق حولها قد يقود التطبيق " الأعمى" لها إلى حالات شاذة أو مفارقات أو توتر والحال أن من لا يستطيع القيام بالكثير يستطيع القيام بالقليل. وهذا صحيح في البلاغة أيضا .وعلى هذا الأساس، فقد كان بإمكان السفسطائيين ، أن يعلمونا، استنادا إلى حالة كهذه، أشياء صعبة ومجدية . ويتعلق الأمر ببذل مجهود لكي يتصور المرء حالة يكون فيها وحيدا مناهضا للجميع، ليدافع عن موقف لا يقبله مجتمعنا : موقف اللاتسامح. إن ممارسة من هذا النوع سيكون لها الفضل في تأكيد أن لا موقف بديهي في ذاته، وكل موقف ، حتى ذاك الذي يتفق حوله الجميع، يجب أن يخضع للحجاج . إن عادة الإقصاء تقود الكثير منا إلى الاعتقاد أنهم في الجانب الصحيح دائما. إن هذا الموقف مجرد وهم في مجتمع مفتوح قد يقود طابعه الساذج مباشرة إلى الدوغمائية.